منير كيال مؤرخ دمشق الطيب العميق وداعاً

ويرحل آخر حافظي التراث الدمشقي مشافهة بعد أن وثّقه بحبه

لم يترك مهنة شعبية ولا زاوية شامية ولا فناً من فنون دمشق إلا ووثقه في كتبه

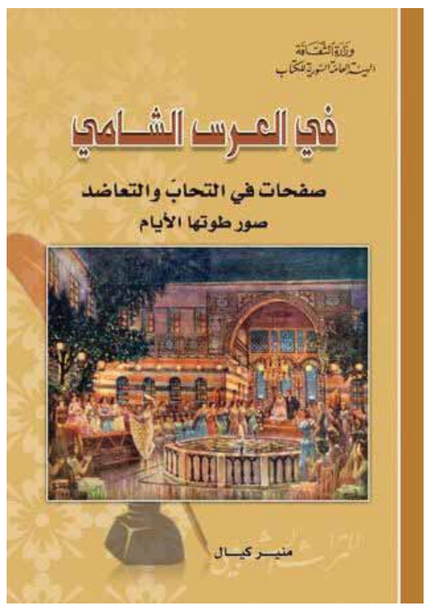

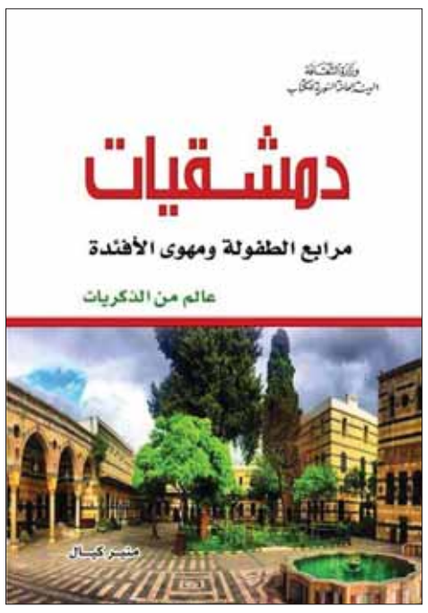

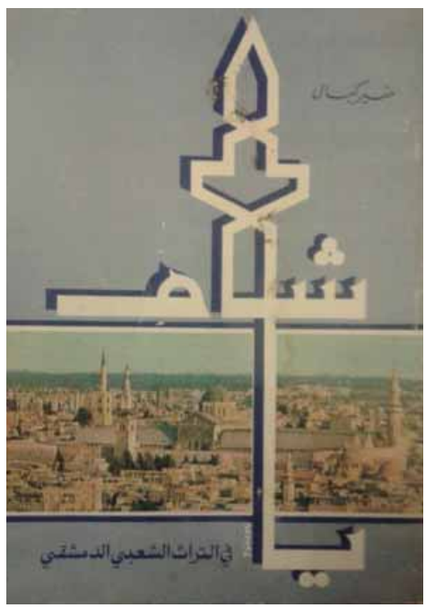

| إسماعيل مروة

ويرحل الأستاذ المؤرخ والصديق منير كيال قبل أيام، تاركاً إرثاً أدبياً وتراثياً قل نظيره، فقد أخلص كيال عمره لدمشق وتاريخها وحياتها وعاداتها وتقاليدها، وقد وسمه كثيرون بالمؤرخ الشعبي، فراق عمله لمن راق، ولم يرق لكثيرين ممن يدّعون العلم والمعرفة، ولكنه على الرغم من كل شيء كان الوحيد الذي أعطى التراث الشعبي الدمشقي حياته، وقضى كل عمره باحثاً عن حكاية، موثقاً لقصة، ناشراً لزغرودة دون أن يكل أو يمل، فما تعب من حاقد ولا من محارب، وغاية ما يقوله عنه: «مسكين ما بيعرف».

حكايته مع دمشق

قبل حوالي ثلاثين عاماً قرأت كتاباً عن الحمامات الدمشقية لمنير كيال، ومن ثم قرأت كتاباً آخر عن دمشق أيام زمان صدر عن دار البشائر بدمشق، فوجدت متعة في كلا الكتابين، خاصة أنني عشت بعض القضايا التي تناولها المؤلف في كتابيه، وأسعدني أن يتم توثيق هذا التراث، وهو في ذلك الوقت يميل إلى الاندثار والغياب، وفي كلا الكتابين حددت منهج كيال الجميل والعلمي:

– الاستعانة بالكتب والإصدارات عن دمشق وتراثها الشعبي.

– تفريغ الذاكرة من الحكايات الشفهية التي سمعها بنفسه.

تناولت الكتابين في دراستين منفصلتين مع إشادتي وملاحظاتي، خاصة ما يتعلق بتدوين التعابير الشعبية العامية، ووجدت بعد أيام، وهي عادة نادرة للأستاذ كيال يطلبني ليقدم بعض مؤلفاته، ويشكر، ويشرح ملاحظاتي على كتابيه، ومنذ ذلك الوقت بدأت حكايتي مع هذا الكاتب الرقيق ومع الدمشقي المؤمن بشامه، وفي جلساتنا المستمرة عرفت أن أغلب ما يقدمه كيال من الذاكرة والمعاشرة، فقد كانت أمه تصحبه في كثير من الزيارات والجولات النسائية، والحديث عن المهن والسيارين يحفظها من الرؤية والحكاية، وهنا ارتفعت مكانة كيال عندي، فكتبه تنتمي إلى المشافهة التي إن لم يعمل عليها فستضيع مع الزمن.

وفي جلسة حدثني عن البداية الفنية في سورية، وأنه قد كان مع الكبير دريد لحام وعمر حجو في فرقة واحدة، وأنه بقي زمناً، لذلك يحمل للفن والمونولوج مكانة خاصة في نفسه، وعملت على حثه لتدوين ذكرياته الفنية مع الفرقة المسرحية في كتاب أو في بحوث ووعد بعد اكتمال مشروعه بتوثيق التراث الدمشقي الشعبي، لكن المشروع لم يكتمل، وبقيت ذكرياته الفنية طي روحه.

منير كيال والدراما السورية الشامية

بعد توالي ظهور الأعمال الشامية كان لمنير كيال رأي، وحدثني به، وهو ممن يرون أن مسلسل أيام شامية هو الأفضل والأقرب إلى الصدقية لاعتماده على العادات والتقاليد أكثر من اعتماده على العنتريات الفارغة والفشخرة، فسألته: لمَ لا تقدم رأيك للعاملين في هذا الباب؟ فقال: أنا التقيت الأستاذ بسام الملا وتحاورنا حول الأعمال، وأعطيت ملاحظاتي، وملاحظاتي تقتصر على التراث والإكسسوارات، فالقماش والدامسكو والألوان والأواني كلها قضايا يجب أن يتم استخدامها بدقة وحرفية عالية، فلا يجوز أن تستخدم في مسلسلات شامية قديمة أواني لم تكن موجودة، والأقمشة لها تخصصات وليست مجموعة ستائر يتم توزيعها هنا وهناك دون إدراك دورها وأهميتها، وكذلك حدثني عن الأعراس وحفلات النسوان والخصوصية فيها، وكلها أحاديث قد توفر الكثير من المال في الإنتاج الدرامي، ولكن العاملين في الدراما لم يعملوا إلا ما يرونه مناسباً، الله ييسر لهم، غداً يفلسون لعدم المعرفة بالتراث كذلك قال لي في ذلك اللقاء.. وهو استمر في التوثيق المطبوع ليخرج أهم موسوعة تراثية شامية.

منير كيال الطيب قريب الدمعة

على الرغم من مرضه وتعبه منذ زمن بعيد، إلا أن كيالاً كان حريصاً على حمل مقالاته بنفسه، وعلى أن يحدد موعداً لا لشيء إلا ليسلم على أصحابه، وما إن تبدأ الحديث حتى يبدأ دمعه بالانهمار وكأنه مربوط إلى بردى، وعرفت فيما بعد أن البكاء عند منير كيال هو وسيلة الدعاء والتنفيس والحرب، لا يلجأ إلى شتم أو انتقاص أو محاربة لأحد.

بل يلجأ إلى دمعه ليغسل حزنه وحسب، ولا أنسى عندما حدثني مرة شاكياً من أن أحدهم اعترض على كتبه في وزارة الثقافة وأوقف طبعها، لأنها حسب رأيه أدب شعبي، وثم تجاوز الأمر، وطبعت الكتب، فكان شكر منير كيال بالدمع أيضاً، لكنه دمع الحب والعرفان، إذ كان يمسك أوراقه وكتبه بيديه بكل حب وحرص لأنها بنات أفكاره، ولأنها تمثل الشام عنده، ولا يوجد لديه أهم من الشام.

محبوبته الشام

في كل ما كتبه منير كيال كان محلياً وموثقاً ولم يدع التأليف في يوم من الأيام، فهو جامع وموثق من الدرجة الممتازة ولم يترك شيئاً بحكم الجمع لم يعمل عليه، ابتداء بالأسواق والأنهار والحارات والمياه، وصولاً إلى الأفراح والبيوت لـ«الوطن» والأزياء والحمامات والنسوان والكنايات الشعبية والحماية والكنة، وصولاً إلى أعلى الرموز كالمساجد والمقامات والكنائس والطرق الصوفية، وكأننا أمام عاشق ينحني أمام كل تفصيلة من تفاصيل محبوبته ليقوم بجمعها في عقد يليق بعنقها وتاريخها، ويستحق كيال كل الاحترام من دمشق التي أحبها ورسخها في كتب للتاريخ قبل أن تضيع الذاكرة والأشياء الجميلة من ذاكرة الناس.

كيال والوطن

مع بداية مشوار جريدة «الوطن»، اتفق الأستاذ كيال وهو الصديق على نشر مقالات عن الشام، وبعد موافقة السيد رئيس التحرير استمر كيال بالكتابة من دون توقف لـ«الوطن» وحدها، وكان يفخر بذلك، وبأن «الوطن» لم تهمل كتاباته، وقد صدر كتاب عن وزارة الثقافة يضم أبحاثه في جريدة «الوطن» التي احترمت الكاتب الكبير وذاكرته، وكانت على موعد مع دراساته وأبحاثه، وبقي يقصد «الوطن» بقامته وعكازه إلى وقت قريب، ومن ثم أوكل لإحدى قريباته أن تتابع مقالاته وما يلزم، وخط منير كيال وأوراقه دليل صدق على أنه كان يكتب خصيصاً لجريدة أحبها وأشار إليها في كتبه، ولقارئ يثق باسمه.

رحل منير كيال الكاتب والموثق والصديق وقد أغنى المكتبة العربية والدمشقية بعشرات الكتب والأبحاث التي تستحق أن تكون مدار بحث ودراسة.

في الذاكرة التي حفرتها تبقى
وفي صدارة روح الشام تعيش
فمن خلد إلى خلد.

من مؤلفاته

١– فنون وصناعات دمشقية دراسة ١٩٥٨.
٢– الحمامات الدمشقية– دراسة– ١٩٦٤. طبعه ثانية عام ١٩٨٨.
٣– جغرافية الوطن العربي– دراسة– ١٩٦٥.
٤– رمضان وتقاليده الدمشقية– دراسة– ١٩٧٣. طبعة ثانية عام ١٩٩١ بعنوان رمضان في الشام أيام زمان.
٥– بترول العرب وقومية المعركة– دراسة ١٩٧٣.
٦– يا شام: في التراث الشعبي– دراسة ١٩٨٤.
٧– حكايات دمشقية– دراسة– ١٩٨٧.
٨– درر الكلام في أمثال أهل الشام، دراسة ١٩٩٢.
٩– بابات مسرح الطفل، كركوز وعيواظ في نصوص موثقة ١٩٩٥.
١٠– الصناعات السورية التقليدية – دراسة ١٩٧٨.
١١– المرأة في المثل الشعبي الشامي.

رحيل مؤرخ دمشق منير كيال

ولد في دمشق ١٩٣١.
إجازة في الجغرافية– جامعة دمشق.
عمل مديراً لعدة ثانويات في دمشق، ومديراً لتعادل الشهادات في وزارة التربية، نشر أبحاثه للمرة الأولى في الصحف والمجلات السورية.
عضو جمعية البحوث والدراسات.

الراحل منير كيال في آخر أحاديثه الصحفية لـ«الوطن»

طوّع التراث كي تعيشه الحياة المعاصرة وتتلاءم معه دمشق بلده وفيها تفتّحت عيناه على النور ولها جهوده

| سوسن صيداوي- ت: طارق السعدوني

مع رحيل منير كيال المؤرخ الدمشقي، تسترجعه صحيفة «الوطن» التي احتضنت كتاباته الأسبوعية لسنوات، وخصّها بحبه، تسترجع آخر لقاء أُجري معه صحفياً، والذي يعطي خلاصة لرحلة هذا المؤرخ الشفهي الذي أحب مدينة كما هي ببساطتها، وبقي حياته كلها يقدمها بالحب والبساطة، ويظهر الحديث معاناة الكاتب حتى استطاع أن يقنع المؤسسات بضرورة التوثيق لما يطلق عليه التراث الشعبي، والمحكي أحياناً..

في الجنبات والزوايا، في الساحات والحارات، بين الياسمين الدمشقي والفل البلدي، وبين النارنج والكباد، وبين البحرة والحمامة الستيتيّة، وبين ضحك الأطفال وأحاديث الكبار، ومن زحام الحياة وضجيجه اللامحدود، انطلق منير كيال من بين كل التفاصيل الدمشقية سواء المعمارية أو الحياتية وحتى التراثية إضافة إلى الكثير من التفاصيل، كي يقول في كتبه العشرين: هنا دمشق.. محبوبتي، وهذي دمشق.. بلد الحب والجمال والعز والفخار، منير كيال شبّ على عشق دمشق ورغب في أن يـؤرّخ كلّ ما فيها، كردّ للجميل، وبَاعتبار مدينته دمشق، وطناً لكل الأوطـان، فإن حبّه الساكن لها سيبقى، ولو بعد حين، في قلبه أكثر اتساعاً وأكثر عمقاً. جريدة «الوطن» زارت منير كيال في منزله في مشروع دمر.. وإليكم الحوار:

• كيف كانت الحال أيام الطفولة والدراسة؟
ولدت في حارة «كيوان» في ساحة الأمويين، فيها كان يمرّ نهر، وضعت عليه علب من «التنك» كي نستطيع عبوره، وبدلا من الجامع الحالي الموجود في المنطقة كان هناك ملعب كنا نحن أولاد الحارة نجتمع فيه إما لنلعب وإما لندرس، ولكننا انتقلنا من هذا المكان إلى عدة أماكن أخرى، فسكنا في منزل في منطقة «زقاق الحكر». ولمّا انتقلت إلى المدرسة كنت تعلّمت على يد خيرة من الأساتذة منهم عبد الحميد ترتر، وشاكر مصطفى الذي كان يضع ملّخص الدرس على السبورة بوساطة طباشير ملونة ومن خلاله نحفظ الدرس، فهؤلاء الأساتذة هم من قاموا بتأسيسنا.

• إذاً، زمن العطاء انعكس عليك وجعل منك رجلاً معطاء؟
طبعا.. حتى عندما التحقت بجامعة دمشق قسم الجغرافية، قام بتدريسنا أساتذة كبار منهم أنور نعمان، نظمي موصلي، وصلاح عمر باشا الذي دعاني كي أقيم معرضاً في الجمعية السورية التي كان مقرها في ساحة المدفع الحالية، وبعدها أمّن لي مكاناً مخصصاً لتحميض وتكبير الصور، وحينها كان عمري عشرين سنة.

• لماذا عملت وأنت طفل صغير؟
قبل الحصول على الشهادة الابتدائية كنت أعمل في العطلة الصيفية في مطعم «العربي» في المرجة، مقابل أجر عن كل يوم عمل ليرة سورية، ولكن بعد أن حصلت على الشهادة طلب مني أبي أن أترك الدراسة، لكنني طلبت من عمي الكبير أن يتدخل، والذي أعطى أبي المبلغ الذي كنت أحصلّه أجراً، مقابل أن أكمل تعليمي، فأبي لم يؤمن بالتعليم يوماً، وهكذا أكملت تعليمي وكان عليّ أن أعمل كثيراً مع الدراسة كي أؤمّن مصاريفي، وكنت أعطي أمي أحياناً وأرضي والدي، لهذا عملت أيضاً في معامل الزجاج وأحمل الزجاج من الشاغور إلى الشيخ محي الدين واضعاً إياه على رأسي حتى أصل، وأجد مكاناً لبيعه بعد أن أفرشه على الأرض.

• هل تمسكك بالعلم كان من منطلق كل ممنوع مرغوب، أم لأنك تريد أن تثبت نفسك وبأن قرارك محق؟
بل من منطلق أن العلم هو نور، فالإنسان الجاهل لا يستطيع التعامل مع الحياة بمفهوم صحيح بعكس المتعلّم، ثم كان لديّ مجموعة من الأصدقاء وتعلمنا كلّنا في المدرسة نفسها، وبالنسبة لي كان أمراً مزعجاً جداً أن يتابعوا تعليمهم من دوني في مدرسة التجهيز ومنهم تيسير الرفاعي، نزار عرابي، ماجد حافظ.
في عام ١٩٦٩ بعد رفض كتاب «رمضان وتقاليده» من وزارة الثقافة قال لك الأستاذ نور الدين حاطوم «اكتب.. اكتب وسيأتي يوم يحترمونك ويبحثون عنك».. اليوم تم تكريمك من فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب في المركز الثقافي في أبو رمانة.. هل أنت سعيد بهذا التكريم؟
في يوم التكريم تذكرت الأستاذ نور الدين حاطوم وتمنيت لو رأى هذه اللحظة.

• هل هذا التكريم كاف؟
بل هو كثير عليّ، فأنا لم أقم بشيء يستحق، لم أكن أكثر من وفي لمدينة دمشق.

• إذاً لم تنتظر تكريماً.. لأنّ العطاء لا ينتظر مقابلاً؟
تماماً.. العطاء لا ينتظر مقابلاً، فهذا واجب عليّ تجاه هذه المدينة، فنحن أبناؤها الذين تربينا وعشنا فيها، الشام بلدي وفيها تفتّحت عيوني على النور وفيها تعلمت، ولها دين وفضل علي وأنا أعتبر أنني أوفيها حقها من خلال ما قدمته عنها في كتبي ومقالاتي التي نشرتها والتي سأنشرها، ولهذا أنا أرغب دائماً في تطويع التراث بما يتلاءم مع الحياة المعاصرة كي تعيش الحياة المعاصرة التراث، وأتمنى ممن يأتي بعدي بأن يكمل ما بدأت به.

• اليوم هناك تشويه للكلام وللعادات الدمشقية الموروثة، وما يزيد الأمر سوءاً أن مسلسلات البيئة الشامية تخدم هذا التشويه؟
هذا صحيح.. هناك الكثير من الأعمال التلفزيونية تقوم بهذا، فعلى سبيل المثال كلمة «زبون العواقي» نراها في أعمال المخرج بسام الملا، حاضرة في غير مضمونها الحقيقي وتأتي الكلمة في الجملة التالية «جاء زبون العواقي» للدلالة على قوة حظه، لكن هذا أمر خاطئ، فـ«زبون العواقي» في العرف الشعبي هو «خدين» أي عشيق المرأة المتزوجة، إذا هناك تشويه واضح لمقولاتنا، لهذا حاولت أن أصححه من خلال كتاب طبعته وزارة الثقافة كان يحمل اسم «الهمشرية» لكنني اضطررت لتغيير اسمه، إلى إيقاعات دمشقية، مع أن «الهمشرية» هي لوصف الإنسان الذي يتآخى مع الإنسان على السراء والضراء، ويصبح الاثنان بطباع واحدة وإذا أخطأ أحدهما يقوم الآخر بتصحيح خطئه.

• شيخ المؤرخين محمد دهمان كان يقول لك بعد أن يرسلك إلى مكان ما: «صف المكان وكن أمينا».. إلى أي مدى الأمانة مهمة سواء في المعلومة وحتى في الحياة؟
الشيخ محمد دهمان له فضل كبير علي، فهو من علّمني كيف أؤرخ وأنقل المعلومة وكيف التقي الناس، وبالفعل عندما كان يرسلني إلى الأماكن ويسألني عنها ويقوم بإرشادي وتوجيهي، فهو من علّمني طريقة البحث العلمي، والأمانة العلمية هي الشيء الصح في حياتنا، فمن لا يكون أميناً على العلم فهو إنسان جاحد، إذاً الأمانة هي شرط أساسي في نجاح المرء.

• إلى أي مدى قدّم لك التصوير الفوتوغرافي الإفادة في عملك التأريخي؟
كثيراً.. ومرة كنت بعت ساعتي كي أشتري فيلماً للكاميرا، حتى إنني كنت أصور وأحمض وأكبّر الصور في بيتي، والصور التي كنت ألتقطها وأنشرها في كتبي إلى جانب المعلومات جاءت لتوثيق المعلومة ولتأكيد صحتها.

• ذات يوم قلت: «أولادك لا يتبعون خطك»، هل ما زالوا كذلك إلى الآن؟
إنهم لا يحبون القراءة ولا التأليف وليس لديهم أي من هذه الاهتمامات، وهذا أمر أعتبره طبيعياً في ظل هذه الظروف الحياتية وفي ظل هموم الأسرة التي يعانون منها، وهذا لا يعني أنهم لا يقدّرونني، على العكس هم مقدّرون جداً لي ولعملي، ولكن أعباء الحياة ومتطلباتها تصرفهم عن الاهتمام بالكتابة والبحث والقراءة، ولو توافر عندهم كل شيء لكان الأمر مختلفاً.

• كيف تمضي أوقاتك في الوقت الحالي؟
أقضي وقتي كلّه في القراءة والكتابة.

• اليوم كيف ترى عيون منير كيال الشام؟
في الوقت الحالي لا أستطيع رؤية الشام فهي ليست الشام، فالشام محبة وإخاء وإيثار وطيبة ووفاء.

• هل يمكن أن نقول إن هذه المرحلة ستؤرخ مجداً جديداً للشام؟
إن شاء الله لأن الإنسان إذا لم يمر في المحن والصعوبات والأزمات لا يعود إلى أصالته، وعليه أن يعاني ويتألم حتى يعرف قيمة نفسه أولا ومن ثم قيمة هذا البلد، إذا الوفاء من طبع أهل الشام وصحيح أن الظروف الحالية قهرتهم، إلا أن أملي كبير بأن تعود الشام كما كانت.

• أي حارة شامية محببة أكثر على قلبك؟
بالتأكيد حارة الشاغور،على الرغم من أنني أسكن هنا في مشروع دمر، إلا أنني كنت أذهب إلى حي الشاغور وأمشي هناك، فسكانه يذكرونني بأصلي وبأهلي وبجيراني وبكل حياتي.